

خادم البيعة

للقصص الروسى حرمة بين الآداب العالمية الآن، وأبطاله هم أبطال القصص فى هذا العصر. ولعل ذلك راجع الى انهم يستمدون كتابتهم مما يحيط بهم فى الحياة !
وان عصر القيصر وما كان فيه من مظالم ، وما عقبه من ثورات ، قد فاض على الادب الروسى حتى اكتسب خصوصيته وأثمر تلك الثرة الشبية .

ومؤلف هذه القصة هو احد كتاب الروس القصصيين الحديثين ، فهو فلاديمير جالا
كشوفتش كورولنسكو (Vladimir Galaktinovich Korolenko)
ولد فى بولتافا سنة ١٨٥٣ وتوفى عام ١٩٢١ .

واسلوبه هادى . يحيط بالفكرة ويخرجها لك صورة واضحة . وان كنت تلمح فى تفكره روح ألم فعله من مرارة النفى سنين طويلة قضاها فى سبيريا مضطهداً من حكومة القيصر لما كان يثيره عليها من كتابات .

وقد وضع قصصاً كثيرة منها «حفيد الغابة» و«الموسيقى الاعمى» و«حلم مكار» اما قصته «خادم البيعة» فهى من احسنها يريك فيها صورة تعبه من الحياة ويكشف لك عنها فى مختلف أطوارها ، ولكنها رغم هذه المتاعب راضية قانعة ، تؤمل وترتاح الى هذا الامل ينسبها ما يحيط بها فى الحياة من تعب وشقاء...

الشمس تخرج الى الغروب والظلام ينشر سجفه شيئاً فشيئاً فوق القرية بجوار الغابة تظلمها أشجار الصنوبر العالية ينساب من بينها جدول صافى النмир فداصطبغ بحمرة الشفق .
وكان السكون يتمشى مع الظلمة فى انتشارها ، حتى اذا سادت تلك الربو ع ، بدت القرية ساكنة صامتة تبعث فى النفس الرهبة ، وتنفسح للعقل بحال التفكير . . .

كانت القرية كذلك الامن صوت عربة ، ووقع اقدام خيل العائد اليها ، أو نباح كلب أو هوار ريح بنوافذ تلك الدساكر قد انبعثت منها الاضواء الضعيفة من المصابيح الضئيلة وفى وسط القرية فوق تل صغير تقوم البيعة ترتفع قبة أجراسها القديمة عالية الى قبة السماء ويلوح مصباحها عن بعد بين الدرارى كواحدة مالت للهجوع

ويسمع لدرج القبة شقشقة خشبه تصر تحت اقدام خادم البيعة العجوز ميكيتش
وقد صعد اليها ليدق النواقيس لإذحانت الصلاة، وهو يجد صعوبة في الصعود إذ أن رجله
لم تعدا لتحمله بعد اليوم . وقد حملناه مدى تلك السنين التي تصرمت من حياة شهد على
مرحاهموت اولاده فاحفاده ثم دفنهم بيديه بعد ان لازموه ولازمهم في أدوار حياتهم ..
وتركوه ينتظر

وكا أن رجله لم تعدا لتحمله . فقد ضعف بصره أيضاً ولم يعد ليساعده على ارتقاب
النجم، ومشاهدة سيف الصبح ينسل من غمد الظلام وشروق الغزاة تنشر خيوطها فوق
الغابة حتى يدق النواقيس
لأنهم ذهبوا جميعاً، وهو لا يزال ينتظر امر ربه

وعلى أضواء النجوم المتبعثرة هنا وهناك في القبة الالهيّة حدق بعينه الذابلتين الى
ما وراء البيعة

هناك مقبرة القرية تقوم عليها الصلبان تدفع عنها شر الارواح الخبيثة، وحمل النسيم
الى ميكيتش عطر الزهور فبعث في نفسه شعوراً ممزوجاً بالحزن لجبه في يم الذكريات
وأسلمه الى خيط من الحياة لا تبين شواطئه
وانبعث من صدره أسئلة غامضة الجواب .

هل سأعيش عاماً آخر فأعود سيرتي الأولى مدى أيام أصعد في هذا الدرج الى
تلك القبة لأردد في جوف الليل وفي مطلع الفجر دقات نواقيسي؟ أم سأزوى بعد
اليوم في جوف قبر من تلك القبور التي يقع عليها نظري الضعيف؟
ان علم الغد عند ربي، واني لمنتظر امره، شاكر له نعمة الحياة التي لم يرد استردادها
حتى اليوم مني

ونظر الى السماء الزاهية بنجومها ثم رسم علامة الصليب، وقال لك الكون،
يا مالك الكون . . .



وانه لكذلك إذ يردد بهو البيعة نداء عجوز متقطع الصوت يبحث عن ميكيتش
ففيه ان قد أذن الوقت بدق الناقوس

فيجيه ميكيتش بصوته المتهدج من القبة ان ينتظر قليلا فهو بالوقت أدري ...
 أليست تلك حاله في مدى حياته البعيدة ، يرى بعينه من تلك القبة جحافل الظلام
 تغشى الغابة ، ويرقب النجم في طلعه وأفوله ، وينظر الى الفجر يبدد الظلام ويتعقب
 قلوبهم ثم ينشر النور ... ؟ أليس جديرا بعد ذلك ان تهبه الطبيعة من سرها مالا يستعين
 معه بساعة ، او يحوجه الى تنبيه لواجبه ؟

* * *

عاد الى الماضي يقلب صورته فعادت به الذاكرة الى المرة الاولى لصعوده الى هذه
 القبة وكان يصحبه ابيه ، وتذكر ملاحظته التي ارتسمت عليها حركات الايام ورحلاتها
 كيف كانت ؟

كان في صباه ذهبي الشعر تلعب بخصلاته النسبات ، ذاعنين واسعتين حادتي النظرة
 ذكر ذلك الامس البعيد فكان قريبا اليه اليوم ...
 من تلك القبة نظر النظرة الاولى من أعلى الفضاء على الغابة الواسعة الخضراء فرأى
 كأنما العالم تحت نظرته وكانت تلك المنازل وجوع الناس تتراعى له أشباحا تصغر
 أمام عينيه ، وقد امتد أمامهما الافق بعيداً

ذكر كل ذلك فابتسم وقال : ولكنها الآن كما كانت بالامس يكاد يكون كل شيء على حاله
 انها الحياة لا يدرك الانسان مداها ولا يعرف سرها في شبابه ، حتى اذا كان قاب
 قوسين أو أدنى من القبر تجلت حقيقتها له من يوم أن دب على الارض ، الى يوم تكاد فيه تبتلع
 ولكن أهذه كلها قبور يا إلهي ؟

لك الكون يا مالك الكون ...

ورأى الارض كأنما فغرت فهاها تريد أن تبتلع ، الارض التي ستضمه في جوفها
 كما ضمت من قبله أجداده وآبائه ثم أولاده وأحفاده . وتركوه ينتظر
 هاهو ينتظر ...

وهاهو الصبح يبدو من غلالة الفجر وقد حان وقت الصلاة ، فوقف العجوز
 خالماً (عمارتة) مشيراً بيده علامة الصليب ثم أمسك جبال الناقوس وشدها فرددت
 الاجواء صدى ثلاث دقات انتشر الناس مع انتشار الرنين بعدها ، وهبوا للصلاة

ابتلعت الاجواء رنين النواقيس ، وبدأ القداس وكان على ميكيتش أن ينزل فيقف
بالباب ويحضر الصلاة ليؤديها ، وليسمع الاغنيات المقدسة ترتل بين الصلوات
ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وقد صعب عليه أن ينزل من هذا الدرج مرة
أخرى . ثم بعد ذلك يصعد فيه ، ففضل البقاء في القبة مرتع أحلامه ، وندرج شبابه الى تلك الشيخوخة
وبجوار نافذة فيها جلس ينظر الى النور يلثم العالم ، ويستمتع للناشيد تحمل اليه
صداهاً النسائم ، فحملته سنة من النوم الى عالم آخر . . . الى عالم الاحلام
لقد كان المصباح الذابل الضوء لا يزال ينبض في سقف القبة ، وصوت المرتلين
ينبعث من قلب البيعة كأنه الصدى تؤوبه الاجواء ، وهذه النواقيس كانت ترن رنيناً
ضعيفاً كدقة الساعة كلما هزت الرياح جبالها فلامستها

وميكيتش العجوز في عالم الاحلام ماذا يرى ؟

انهم يترنمون بالناشيد الدينية ، وهو بينهم ولكن من هذا الذي يبدأ الصلاة ؟
أنه الاب (توام) وقد مات منذ أمد بعيد ، وهاهي رؤوس المصلين رجالاً ونساء
تلعب بها طقوس الصلاة فهي تميل طورا وطورا تشنى كأنها السنبلة مرت بها الريح
وهاهم يرسمون علامة الصليب

لقد كان أكثر الجميع قوم قذفت بهم الحياة الى بطن الثرى ، ولكن ميكيتش براهم
يصلون ويرى نفسه بينهم ، ويرى أباه بوجهه العابس ويحس قساوة قلبه كما كان في
حياته وها أخوه أيضاً بين المصلين . أما ميكيتش فيرى نفسه تفيض أملاً بالسعادة التي
طالما حلم بها ولكن أين هي ؟

إنه لا يزال تعباً ، وها هو يلح نفسه بين تلك السنين من حياته صاعداً الدرج ، هابطه
وإنه ليتأوه وتلك حال من حملتهم الحياة عبأها الثقيل في الشباب ، حتى اذا وقفوا على
حدود الابدية دلت ملاحظهم على ما اجتازوا من عقبات ، ويرى غبار الايام مغفراً وجوهم
ومع نساء القرية . ماذا يرى . . . إنه يرى رفيقة حياته التي قضت نحبها منذ أمد
حانية رأسها هادئة . ولقد كانت مخلصه له فهو يراها ملاكاً خليقاً بسكنى السماء . كانت
مخلصة تعذبت وإياه وكان عذاباً مرأً في فقر بعيد الغور ولكنها كانت جد مخلصه
لقد كانا يبحثان عن السعادة

قضى ما قاسته تلك المرأة على جمالها ، وأطفأ نور عينها فقدت ولدها الوحيد بعد أن
 مُلِّقَتْ به جواري الأيام في بحر من اندنايا كدربهم
 ورأى الغنى - وياشدها كان يكره الاغنياء - يصلى طالبا المغفرة وقد أحنى رأسه في
 خشوع وخزى

رأى ميكيش كل ذلك ، رأى الحياة ... ثم فتح عينيه فرأى جدران القبة تحوطه
 فأحنى رأسه وبللت بالدموع وجهه المجدد
 ومزق ستار سكونه نداء من داخل البيعة يقول :

« هل نمت في القبة يا ميكيش ؟ »

فرفع رأسه إلى السماء قائلا : « هل كنت نائماً يا رباه ؟ إني لم أذقه قبل الآن ! ،
 وسرعان ما أمسك جبال الأجراس كسابق عادته . وكان اليوم عيد قيامة السيد المسيح
 فرأى من نافذة القبة الأعلام تغازلها النسائم فوق سطوح المنازل والجموع تخرج من
 باب البيعة ترتل الأناشيد وهي تقول « المسيح قام من بين الأموات » فاهتز قلب
 ذلك العجوز وبدأ يشق عنان السماء بدقات نواقيسه ، وقد زاده ما رأى عزماً ،
 وكأنه يرى في تلك المشاهد شيئاً غير مألوف وإن ذلك اليوم ليس كسابقاته من
 الأيام ، وكأنما الأجراس قد اتصلت بقلبه فهي ترن رنيناً مشجياً لم يعهده
 وبين رنين الأجراس وهتاف القوم ، نسى الرجل حياته التعيسة ، وعزب عنه
 أنه ذلك الذى نسيه العالم بين جدران البيعة ، وفوق درج قبتها القديمة وأجراسها
 الصلبة القلب ، فكانه

..... كسفينة منبوذة في ال * شط غاب وراءها ماضيا (١)

وحامت حوله الخيالات كأطياف جازعة في سماء حياته المكفهرة
 رأى أهله ووالدته الذين رحلوا من الحياة ينادونه وقد أحاطوا به يحدثونه عن
 شيء . ، فهو جذل ، وهو ينتظر
 وعم كانوا يحدثونه ؟ عن السعادة التي حلم بها طيلة حياته وما كان له أن يراها
 بولو خلد الأمد السرمدي

(١) هذا البيت من قصيدة للشاعر الكبير الاستاذ ايليا ابو ماضي

سعادة تنتظره بعد ما كان ينتظرها !!

وجذب الجبال فرنت الأجراس

ووقف القوم يتحدثون عن جمال الرنين وهم يذكرون أنهم لم يسمعوا قبل الآن
من ميكيتش دقات لنواقيسه بلغت من الجبال ما تفتحت له أبواب السماء، مثلما سمعوا اليوم
وانهم لذلك وإذا بالنواقيس الكبيرة ترن رنيناً مزعجاً بينما كانت الأجراس
الصغيرة ترن بما كان يخالج قلب الرجل

وسقط ميكيتش بعد أن بللت وجهه الشاحب آخر دمعة من عينه

وارتفعت مع صدى الأجراس إلى السماء روح العجوز المسكين.

ثم ساد القبة السكون.

(ح. ك. ص)



يا سلام! عشرة جنيه ثمن الصورة!

ليه هي بتأخذ كام وقه زيت